أفراح العالم

قصة بقلم منذر الفرا

أيام ويزدهر العالم بالورد والاضواء والحنان . يتذكر النـــاس عذوبة لعبة الحياة التي وهبوها ، فيتمرغون بالرقص والحب والشراب . وتعانقك أنت الامنيات وتلوح الشتاء اللؤلؤية ، فتغادرين تشلفر بالقطار منذ الصباح الى لندن . وكالقطار ، تستقبلك محطة بيتر وعائلتـــه ، فيلقاك ببشاشة شاحبة « أهلا مارغو . كم يسعدني حضورك » ويهلـل الصغيران ، وتقدم الزوجة الاحترام ، وتغص اللحظات بالقبـــلات والضحك وتبادل الاخبار . ثم يبدأ القط ينشب مخالبه ممزقا فـــي قلبك ، ككل عام .

(لو حضرت ، لكان من الممكن أن نحيا أياما رائعة . كنت شعلة من نار . يا لله كم أنتم محرقون . في جنبائكم تلتهب حياة . ولكـــن لم أكرر الاشياء التي لا تلذ لك ؟ يكفي أن أذكرك بتجوالنا عبر الطرقـــات الطويلة هنا ، وفلسفاتنا اللامجدية ، وسهراتنا في نزلك ، وضحكنـــا الذي لم ينقطع ، وأملنا بحياة تكف عن افتراسها المتاعب . يكفي أن أذكرك انك امام عام جديد ، فبم تحلم الان ؟) .

قدم صاحبي مارغريت : « انها صديقتنا ، هي تحب العرب . أرجو لك معها وقتا طيبا » .

وأكمل بالعربية : « ليس منها خير . اذا كان يهمك الامر ، ابحث عن اسهل منها » .

ضحكت ملء قلبي وقلت : « أشكرك » . والتفت اليها : « سعيد بمعرفتك » .

بعد نصف ساعة كنا نسير على رصيف عريض : الشارع تعانقـه الاشجار خضراء . وأطياف هاربة هنا وهناك ، والجو كالعادة ، ينـذر بعاصفة . والرذاذ يغسل وجهينا .

قالت : « يحلو لي أن أسير في المطر . ان بي ضيق صدر . وأضيق بالمكوث بين الجدران » .

قلت : « لعله ضيق قلب عن أحلامه . ومع ذلك فالطقس خريفـي منعش ومقبول » .

« صحيح . هذا بالذات ما يثيرني . فحين تقترب المرأة من الثلاثين ، تعصف بها الهواجس . وهذا الشارع أثير ومحبب ، فيه سرت مئـات الكيلومترات مع السيد عوض . هو من بلدك ولا بد تعرفه » .

قلت بلا مبالاة : « نعم . هل كان صديقك ؟ » .

« صديق ؟ كان فتاي الاول . على يده تمرغت بالحياة . كنـا متحابين لدرجة الجنون . ثم ، ثم زار الوطن فاذا به يعود بعـــروس ويتحاشاني كفار . وصديقك الاخر هذا ، أحبته ميري حتى العبـادة . الذي حدث انه زار دمشق فاذا به يعود بزوجة . اني لا أفهمكم » .

فقلت ضاحكا : « انكم لا تجيدون الطهي . والحب ، كما يقولون ، يمر عبر المعدة » .

فضحكت مارغريت : « بل أنتم محافظون . انما تحبون انطلاقنا »

صمتت قليلا وتابعت : « يبدو لي انكم متفائلون . لا شيء ذو خطر لديكم . حياتكم سهلة وغدكم لا يعنيكم . وكأن الزمان لعبتكم » .

ابتسمت . الشارع ممتد بلا نهاية ، نظيف ومتسع . والاشجـار خضراء مصفرة تعصر القلب شجنا . قلت : « ما تعرفن عن حياتنا ؟ » .

« سماتها فيكم » .

« هيه .. لو تعانينها . لو تدركين هذه الآسيا التي زرعنا فيها . لو تفهمينها من الداخل » .

فقالت : « ألهذا الحد ؟ » .

« دعينا من هذا ، رجاء . فالصمت والسلام يفيضان حلاوة على كل شيء . وها نحن معا » .

(كثيرا ما أفكر لماذا عرفتك . وأية وشائج ربطتني بك نزيل لايام ! مهزلة . لكنك كنت مهذبا للغاية . هل أقول كان في روحك ذعر ؟ كنت منطلقا ، فرحا ، ضاحكا . نسيت ؟ حاولت أن تلتهم كل شيء يعترضك. « لنغرس أقدامنا في كل مكان . دعينا نعش يومنا » . هذه كلماتك . حطمت الرتابة التي أحياها . وزرعت روحك بي . فاغترفت واغترفت . وأغرقتني بشوق لمباهج كدت أنساها . فأحسست بالايام المضاعة ومهانة السنوات الطوال الطافحة بالمرارة . كهربتني مشاعرك . ففرقت بك . وتندرت بكلماتي في أحرج اللحظات ، في أبهاها ، وأنت تكررها « اخشى ان يكون ما ينتابني حبا . ولكني سعيدة . سعيدة وتعيسة معـــا» . أفهمت الان ما عنيت ؟ كان ثمة شيء يلاحقك كقدر ، يستحثك . كأنها اخر ايامك. فأيقظتني . ولكن لم ؟ وماذا جنيت ؟ لندع هذا . بالمناسبة. ذهبت مع الصديقة جوليا الى العزيزة بلاك بول منذ أيام لقضاء ليلة . وكم افتقدناك) .

قالت مارغريت : « سأعمل في الصباح حتى العاشرة . وبعدهـا يمكننا أن نرحل الى بلاك بول بالقطار . هناك أعرفت بجوليا . ويرتب صديقها كل شيء » .

ووافقت بالطبع . كان القطار يخترق ريفا أجرد أحيانا ، مخضرا أحيانا . كنا في قسم منفردين . قطار مهترىء بطيء ، والشمس تلفنا بدفء واه . كانت مارغريت في ذروة الانتعاش . والسهر والانهـــاك يرسمان هالة حول عينيها . كنا ندخن ونتكلم .

« كان أخي بيتر يعنفني دائما . يقول اني بليدة . وليس لي عينا نسر . انه رجل عملي . حبذا لو أعرفك به . انه يقضي اجازته عـــلى بعد نصف ساعة من الساحل . كان يرجوني أن أكون أكثر مرونة . وأن أتزوج وأنجب . ولكني لا أستطيع . لا أستطيع » .

قلت : « انه محق . فهذه طبيعة الامور » .

قالت : « أعتقد أحيانا اني من جيل اخر . تصور انه يستحيل علي أن أنام مع أي انسان . وكلهن لسن كذلك . خذ جوليا مثلا . انهـــا تخرج من العمل في الخامسة . ولا تطيق البقاء لحظة مع نفسهـا . فتهرب الى صديقها . الى مرقص ، الى أي صديق ، الى جورج اذا ضاقت السبل . وبعد ذلك الى الشيطان . أتصدق منذ متى لـــم أعرف الحب ؟ » .

« ربما منذ شهرين . لقد كنت رائعة » .

« منذ عامين ونصف . تصور . تقول الصديقات اني حمقـاء . ولكن ما ذنبي ؟ أقول لك ، انه عالم غير عادل . فما قيمة المرء بلا .. لنقل بلا تعاطف ؟ » .

فقلت : « بطريقة أو بأخرى ، علينا أن نعيش » . وبعد لحظات : « ألا يحضر بيتر مرارا الى تشستر ؟ » .

« يحضر كل ثلاثة شهور أو اربعة لقضاء عطلة الاسبوع . لم يبق في دنياه سوى عائلته . وفي كل مرة كان ينظر الي وكأنـــه يقـول : « أليس من جديد ؟ ها أنت وحيدة أيضا » . ولكن صغيريه رائعان ، كم

أشتاق اليهما . على أي حال ، نحن معا وسوف نقضي أمسية ممتعة » .

وصمتت مارغريت لحظة ثم قالت : « وفي دمشقكم ، كيف تحيون السنة الجديدة ؟ » .

قلت : « كما في كل مكان من العالم القديم المتعب » .

واتسعت حدقتاها : « ماذا تعني ؟ » .

فقلت : مارغو . قلت لك اننا من عالم اسيوي تيقظت روحه على عدم . وقلة منا تدرك وتتلظى وتتخبط » .

فقالت باسمة : « ربما لا أفهم . فنحن الانكليز نادرا ما يهمنا أمر الاخرين . لعله يحسن بي أن أصمت » .

« كفانا ثرثرة . ثمة الان ، وحدنا ، أجمل من الكلمات » .

(والان ، كم مضى من الايام منذ أن قلت : الى اللقاء . لم أشف بعد من فكرة انني التقيت بك . وغالبا ما أذكر أشياءنا الجميلة التي سعدنا بها . كنت محظوظة بتلك الفترة ، وأنت تدفعني الى المستقبل وانا أجرك الى ماضي . وكلانا يتأكله الشوق والاسف .

آه يا صديقي ، لو تذكر . لو تعي أية حياة عشناها . تذكر نزهاتنا على رصيف الشاطىء الطويل ، بعد خروجنا من « سمتز » وقبله ، نشوانين أمام تشقق الفجر ، متيقظي الروح حتى الانبهار . لكن أي انسحاق كنت به . أي ألم . تحدثنا عن عامنا الجديد ، معا ، وكنا نحلم .

هيه .. ها قد انتهى العام ومضغنا الايام . يومها وعدتني . ألم تدرك معنى الوعد ؟ عندنا . اكفر بكل شيء الا بتحقيق عهد . أم من يدري ؟) .

كان نادي سمث ، حيث دعانا جورج لقضاء السهرة ، ملتقى النخبة . وجورج صاحب مرقص للمراهقين . تجاوز الاربعين . رجل لكل الاعمال . كانت ترافقه جوليا ، بعينيها المشعتين بالفرح ، بوجهها الطفولي ، بقوامها الرائع المهفهف ، بصدرها الناهد العاري ، بعمر لم يتجاوز العشرين .

قدمتني مارغريت اليهما ، واستقللنا سيارة جورج ، وبعد دقائق ، كنا في زاوية مظلمة من النادي .

وقال جورج ببسمة ثعلبية : « ما أجمل مفاجآت مارغو . لقد رفضت قطتي الصغيرة الخروج بحزم ، ولكنها هرولت حين علمت بحضوركما » .

فقلت : « لعله حظ الغريب أن يقضي وقتا طيبا مع سادة وفي ناد محترم » .

وابتسمت في وجه مارغريت ، فضغطت على يدي وقالت : « كنت واثقة انهما يحلوان لك » .

كان جورج يختلس النظرات الى جوليا . ويمد يدا شبقة تتلمس أطراف الفتاة . كانت عيناه زائغتين وشيء يلعب في ذهنه . كان ، بين الحين والحين ، يهمس في أذنها ، يشم بشرة خديها ، يتمسح ككلب ، فتبتسم موافقة ، وتميل برأسها اليه . ثم تومض عيناها نحو مارغريت بمعنى . ونظرت الى الصديقة ، ففمزتني . ثم مالت نحوي : « نعم . لكنها رائعة . على أي حال هي راضية » . ولحظت جوليا فابتسمت ، ورفعت الكأس في وجهي ، ورجت السعادة لكل العالم . كان الجو محموما . كان عالما يشع بالامل ويحترق بالكحول . فرقصت مع الصبيتين ، وتبادلنا الانخاب . وسمعت جوليا تصرخ : « مارغو ، حرقت ثوبك . آف منك . مستهترة دائما » . وانقلبت سحنة مارغريت وسقط رأسها في حضنها « هكذا يحدث دائما . أنسى ان للسيكارة رمادا محرقا . أليس ثمن السهوم قطعة تريكو جديدة لا ترقع ؟ فترد جوليا « لا بأس . لم أقصد ايذاءك » فيلتفت جورج وهو يخاصر جوليا « لا تقلقي . ففي المخازن الكثير » . ويفرز وجهه الاحمر المنقط في بشرة جوليا « أليس كذلك يا حبيبتي ؟ » فترد وعيناها علينا « بالطبع.

أتقول غير الصحيح يا عزيزي ؟ » فيبتسم وينتفخ . وتومض عينا جوليا . ويسقط رأس مارغريت الى حضنها باستمرار ، ويختنق اللعاب في حنجرتي . فتموه وتقول « كأس ضيفنا » ويلتفت جورج نحوي « قلت انك عربي ؟ لا بد ان الشرق رائع بالشمس » . فأهز برأسي فيتابع « هذا ما نفتقده » . ويعود الى جوليا ، مدغدغا ، هامسا ، مبتسما بالرغم عنه . ويلفها بحنان وحشي ، وتفرق بي مارغريت ، وتحدثني طويلا . ثم تقول : « عدني أن تعود » فأجيبها « أعدك » فتكرر « لم أسمع ، عدني » فأقول : « قلت أعدك ، ان تمكنت » . وأحس بها على صدري ، وديعة مضاعة .

ومع غبش الفجر غادرنا النادي . وطلبنا أن يلفظنا جورج بحذاء الشاطىء .

وخرج من السيارة مودعا : « أرجو أن نلتقي مرارا » .

وقالت جوليا وهي ترتعد في مقعدها بجوار السائق : « سننتظرك أول السنة » .

قالت مارغريت : « كانت سهرة لطيفة . جوليا كذلك . انني أحبها » .

كنا متخاصرين . العالم يلفه السلام . وشوشات الموج تؤنسنا . ونحن نشهد مولد الفجر .

وقالت فيما بعد : « بحق المسيح ، كثيرة هي لحظات السعادة » .

« انها تتوقف علينا أحيانا . ولكني أفكر في البعيد . أفكر الان ، ونحن معا ، نختنق غبطة . أسائل نفسي هل خلق الله عالما واحدا أم عوالم كثيرة ؟ » .

فأجابت على الفور : « اسكت أرجوك . لا تفسد النشوة . شيء واحد يهم الان : أن تعدني بالعودة » . فقلت : « اطمئني » . ثم قالت بعد صمت : « انه غير عادل . هذا العالم غير عادل » .

لم أتكلم . كان الصباح صقيعيا ، والعالم صامتا . كان وقع أقدامنا سلوانا .

(والليلة الاخيرة ؟ هل تؤرقك مثلي باستمرار ؟ كان كلانا لهيبا محرقا . كما لو اننا غفونا دهرا واستيقظنا فجأة على الكارثة . حاولنا المستحيل . ولذنا الاحتراق فازددنا تأججا . يومها كنا الحطب والشواء. يومها كنا البداية والنهاية . يومها ، أعني في الضحى وبعد غفوة ، أدركنا روعة المعجزة . واريت مشاعرك الحقيقية بالتمويه والضحك . ولكن لماذا ؟ ألا يمكن لجدران الصمت أن تنهار ؟ لو عرفت انك لن تعود، ما عملت أثناء وجودك هنا . كان يمكن لسكرتيرة متنقلة أن تضحي بعشرات الشلنات مقابل بقائها طوال الوقت معك . لقد عملت ثلاثين ساعة وأنت هنا . أحصيتها حين استبطأتك . وأدركت كم كنت حمقاء .

لكن خبرني كيف ستقضي بدء عامك . مع من ؟ أين ؟ وستتابعك خطواتي . واياك أن تنسى نخبي . لقد وعدتني وأخلفت . ومنذ أربعة شهور لم تكتب لي (تذكير فقط) . ربما سأنتظرك عاما اخر ، ولكني لا أستطيع . وكلما اجتمعت ببعض من صحبك هنا ، تمثل لي الوقت الرائع الذي قضيناه معا . وكم رغبت لو كنت معنا ، هل يعقل هذا ؟

على أي حال سأقضي ليلة العام مع أخي بيتر وعائلته . لا بأس . الطقس هنا سيىء للغاية . والشمس حلمنا الابدي . هنا الان ، كالعادة، مطر مطر مطر ..

أرجو أن تعلم اني افتقدك كثيرا ، وآمل أن تدخر بعضا من فضل وقتك كي تكتب لي وتقول انك افتقدتني قليلا . وسوف أسامحك عندئذ بقدر ما تستطيع فتاة مسيحية طيبة أن تفعل .

كثيرا من الحب لك ، يا صديقي ، وأيضا ، بالطبع ، كثيرا من القبلات) .

دمشق

منذر الفرا